أصالة معاصرة في مفاهيم الشعر والنثر

عند أبي حيان التوحيدي

دراسة : عبد النبي اصطيف

« محاولة للكشف عن بعض الجوانب
المشرقة من التراث النقدي العربي »

مدخل :

أبو حيان « اديب الفلاسفة ، وفيلسوف الأدباء »(١) نظير الجاحظ أو يفوقه ، الفنان الناقد والفيلسوف الفنان ،(٢) الناثر البليغ يصحبنا في ليلة من امتاعه ومؤانسته يحدثنا هامساً حيناً ، مناقشاً حيناً آخر ، متحرجاً حيناً ثالثاً ، يواجه من يحدثه طوراً، ويتوارى على خفر ينقل عن معاصريه وسابقيه طوراً آخر ، ويحاول أن يكون حديثه آخذاً بعضه برقاب بعض فيجعله يدور حول الشعر والنثر يعرض للمفاضلة بينهما ، ولرأي القوم فيهما ، دون أن يقطع برأي في تفضيل أحدهما على الآخر في ظاهر الأمر تاركاً أمر تقرير ذلك الى القارىء أو الى الجليس الذي يحاول أن يمتعه بما يقول ويحدث ، ويؤنسه بهذا الذي يقوله ، وذاك الذي يحدثه به .

وينبغي للمرء أن يشير ـ في بداية حديثه عن ليلة أبي حيان التي يعرض فيها الشعر والنثر ـ الى أمور لا بد من ذكرها لتسهم في القاء بعض الضوء على ما أتى به صاحبنا .

★ أول هذه الأمور أن أبا حيان يهمس في آذاننا بحديث من وراء حجاب ـ هو هذه القرون العشرة ـ ولذلك فاننا لا ننتظر منه أن يكون بدقة المعاصرين في تحديد مفاهيمهم وفي ترتيب مادته التي يعرضها ، والتنسيق فيما بينها .

★★ وثانيها أن أبا حيان يعرض آراءه التي يوردها في هذه الليلة منقولة على ألسنة معاصريه

١ ـ ابو حيان التوحيدي د. زكريا ابراهيم .
٢ ـ علم الجمال عند ابي حيان ص ٩ .

وسابقيه ، ويكتفي بدور الملتقط لهذه الآراء والعارض لها ، دون أن يحاول نقدها ومناقشتها مباشرة ، بل يعرضها على شكل تبدو فيه وكأنها آراء وردود تسهم في بلورة القضية التي يطرقها في ليلته •

وبأمانة الباحث الحديث يسند جميع أقواله الى أصحابها(٣) الا القليل(٤) عارضاً لها بموضوعية ودقة وربما بحرفية شديدة ، ولعل طبيعة الحديث هي التي تجعله يتبع هذه الطريقة ، فالحديث حوار مع وزير الدولة ابن سعدان والحوار مع رجال الدولة يقتضي حكمة وكياسة وعرضاً لمختلف وجهات النظر في القضية المطروحة حتى يستبين وجه الحق والصواب لمن يحدث ، ويميل هو نفسه الى هذا الرأي أو ذاك بملء حريته واختياره ، ولعل هذه مناقشة مبطنة • كما أن الحديث في قضايا فنية يتطلب هذه السعة في أفق الباحث ،والرحابة في صدره ليتقبل كل الآراء التي تعرض لأن البحث في القضايا الفنية لا يكاد ينتهي والمسألة الفنية لا يجاب عليها باجابة واحدة ، فالنثر والشعر من الصناعة ــ أي الفن في مفهومنا المعاصر ، وها هو أبو حيان يقول في ذلك « أقول ما وعيته عن أرباب هذا الشأن ، والمنتمين لهذا الفن ، وإن عنّ شيء لا يكون شكلا لذلك وصلته به تكميلاً للشرح واستيعاباً للباب وصمداً للغاية وأخذاً بالحياطة ، وان كان المنتهى منه غير مطموع ، ولا موصول اليه »(٥) •

لقد كان أبو حيان مجرد ناقل أمين ــ ومع أنه أعلن أنه سيشرح بعض ما يورده ، الا أنه لم يفعل ــ وهو يجيب على المسألة الفنية بأكثر من جواب ، لأن البحث في القضايا الفنية لا يكاد ينتهي، فآفاق البحث رحبة ، والآراء متشعبة ، ولا مجال للقول الفصل •

★★★ وثالثها أن أبا حيان كاتب ناثر ، وليس شاعراً ناظماً ، ومن الطبيعي أن يعمد في موازنته بين الشعر والنثر الى ترجيح كفة النثر ، وربما تحايل على محدثه في ذلك ، الا أن الأمر لن يخفى علينا ، كما أن ثمة سبباً آخر كان يدفعه الى هذا الترجيح ، وهو أنه يحدث وزيراً ، وكان أغلب الوزراء في ذلك العصر من الكتّاب الناثرين من أمثال الصاحب ابن عباد ، وابن العميد الأب والابن ، وابن سعدان ، وغيرهم •

★ ★ ★

عرض منظم للحديث :

وأحاول أن ألج عالم ليلته الغني بمحتواه ، الثري بمضمونه ، أن ألم شتات حديثه الممتع المؤنس ، وأعقب في النهاية عليه عامداً الى شيء من المقارنة والنقاش ، لأروز مدى قربه وبعده من مفاهيم الأدب والفن المعاصرين •

وأجلس اليه ليحدثني حديث الليلة فيقول « وقال أدام الله دولته ــ ليلة ، أحب أن أسمع كلاماً

٣ ــ انظر على سبيل المثال الصفحات ٢/١٣٤ــ ١٣٥ــ ١٣٦ــ١٣٨ من **الامتاع والمؤانسة** •
٤ ــ انظر أيضاً ٢/١٢١ ، ١٣٩ ••• من المصدر السابق •
٥ ــ **الامتاع والمؤانسة** ٢/١٣١ •

في مراتب النظم والنثر والى أي حد ينتهيان ، وعلى أي شكل يتفقان وأيهما أجمع للفائدة ، وأرجع بالعائدة ، وأدخل في الصناعة وأولى بالبراعة »(٦) لقد حدد له الوزير الأمور التي ينبغي أن يدير حديثه حولها فهي : النظم والنثر ، مراتبهما حدودهما ما يتفقان فيه ، ومدى فائدتهما ، وأيهما أدخل في الفن ـ الصناعة ـ وأولى بالتقديم ، ولكنه لم يلتزم هذا التحديد فعرض لهذه الأمور كلها منتقلا من النثر الى الشعر ومن الشعر الى النثر ، مفضلا هذا على ذاك، وذاك على هذا ، ذاكراً فضل كل من النثر والشعر ، مبيناً عيوبهما ، وهو في كل ذلك يتوارى خلف حجاب من ينقل عنهم ، مكتفياً بالتلميح دون التصريح ـ الى أنه يفضل النثر (كما سيتبين من خلال عرض الليلة) لأنه ناثر ولأن الوزير ناثر أيضاً ·

ويقدم لحديثه عنهما بقول لأبي سليمان يقسم الكلام الى كلام صادر عن عفو البديهة يمتاز بالصفاء ويعاب بضآلة خط العقل فيه وهو الشعر ·· وكلام صادر عن كد الروية ويمتاز بأنه يشفي غليل المتحدث في الكشف عن كل ما يريده ، ويعاب بضآلة حظ الحس فيه وهو النثر ·· وكلام مركب من كليهما يمتاز بأنه أوفى منهما فاذا ما خلا « من شوائب التكلف وشوائن التعسف كان بليغاً مقبولاً رائعاً حلواً تحتضنه الصدور ، وتختلسه الآذان وتنتهبه المجالس ويتنافس فيه المتنافس بعد المتنافس، والتفاضل الواقع بين البلغاء في النظم والنثر، انما هو في هذا المركب الذي يسمى تأليفاً ورصفاً »(٧) فلكل من النثر والشعر طبيعته التي تفسر عيوبه ومزاياه ، ولذلك فان هذا المركب هو الذي يقع فيه التفاضل لأنه من خلاله الجمع بين محاسن كل من النظم والنثر ، والابتعاد عن عيوبهما معاً ·

وبعد أن يتخذ من مقالة أبي سليمان جواز مرور الى الحديث عن الشعر والنثر ، يتحدث عن النثر وهو في حديثه عنه يأتي على أمور عديدة فيه يتحدث أولاً عن طبيعته ، ثم عن مزاياه ، ثم عن عيوبه · ولا شك أن حديثه عن الأمور الثلاثة سوف يتداخل ـ لطبيعة الحوار ـ ولذلك لا بد من الانتقاء والاصطفاء وجمع الشبيه الى الشبيه حتى نكفل الموضوعية والوضوح لما نورد ·

* طبيعة النثر :

ـ النثر كلام صادر من كد الروية، وهو لذلك أشفى للغليل في الحديث ، وأبعد عن الحس(٨) ·

ـ النثر أصل والأصل أشرف ، ولذلك يقصده جميع الناس في أول كلامهم ·(٩)

ـ النثر طبيعي بالبداءة لأن الانسان لا ينطق في أول حاله الى زمان مديد الا بالمنثور المتبدد ·(١٠)

---

٦ ـ الامتاع والمؤانسة ١٣٠/٢ ·

٧و٨و٩و١٠و١١ ـ الامتاع والمؤانسة ١٣٢/٢ ·

** مـزايـــــاه :

ـ الوحدة(١١) ، والوحدة عنصر هام من عناصر العمل الفني(١٢) ، و « لا توجد هذه الوحدة في شيء ولا تغلب على شيء الا كان ذلـك دليلاً ،على حسن ذلك الشيء وبقائه »(١٣) وهذه الصفة صفة الوحـدة فيه فهو الهـي بالوحدة مثلمـا هوطبيعي بالبدأة ، والبدأة في الطبيعيات التي هـي الخلية وحدة ، كما أن الوحدة (أي الذات الالهية)في الالهيات بدأة ، فالله أصل الوجود ، وربما كان هذا الكلام الأخير بحاجة الى نقاش ، ولذلك فـانأبا حيان يعقب عليه قائلاً «وهذا كلام خطير»(١٤)•

ـ البعد عن التكلف ، والتنزه عن الضرورة ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ممـا هو موجود في الشعر(١٥) أي أنه أسهل تناولا من الشعر ولذلك يقصده الناس في أول كلامهم(١٦) •

ـ هو **أصل** ، والنظام فرع ، والأصل أشرف من الفرع ، والفرع أنقص من الأصل •

ـ هو مقدم عند الله ورسوله والناس ، فمن تقدّمه ، الله « أن الكتب القديمة والحديثة النازلة من السماء على ألسنة الرسل بالتأييد الالهي مـع اختلاف اللغات ، كلها منثورة مبسوطة »(١٧) وأنه تعالى قال في التنزيل « اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ولم يقل لؤلؤاً منظومـاً »(١٨) ومن تقدمه عند النبي « أنه لم ينطـق الا به آمراً وناهيـاً ،ومستخبراً ومخبراً وهادياًوواعظاً وغاضباً وراضياً» « وما سلب النظم منه الا لهبوطه عن درجة النثـرولا نزّه عنه الا لما فيـه من النقص ولو تساويـا لنطق بهما ولما اختلفـا خص بأشرفهما الـذي هو(أجل في جميع المواضع ، وأجلب لكل ما يطلب من المنافع »(١٩) أما تقدمه عند **الناس** فهو أن الحاكم لا يختارونه الا من أصحـاب النثر كما أننـا « لو تصفحنا ما صـار الى أصحـاب النثر من كتّـاب البلاغة والخطباء الذين ندبوا عن الدولة ••• مما فتق به الرتق ، وأصلح به الفاسد ، ولم به الشعث لكان يوفي على كل ما صار الى جميع من قال الشعر ولاك القصيد ••• »(٢٠)

ـ **أن صاحبه منزه عن التزلف والتكسب أمام الخلفاء والوزراء** به على عكس الشاعر الذي لا نراه الا قائماً بين يدي خليفة ممدود الكف مع الذلة والهوان ، « وقد برأ الله تعالى باحسانه القديم ومنّه الجسيم صاحب البلاغة من هذا كله ، وكفاه مؤونة الغدر به ، والضرر به »(٢١) •

١٢ـ علم الجمال عند أبي حيان ٦٠
١٣و١٤ ـ **الامتاع والمؤانسة ١٣٢/٢** •
١٥ـ نفسـه ١٣٤/٢ •
١٦ـ نفسـه ١٣٢/٢ •
١٧ـ **الامتاع والمؤانسة ١٣٣/٢** •
١٨ نفسـه ١٣٤/٢ •
١٩ـ نفسـه ١٣٥/٢ •
٢٠و٢١ ـ نفسه **١٣٨/٢** •

*** عيـوبـــه :

- أن صورة الحس فيه أقل(٢٢) ٠
- أن الناس يقولون : « ما أكمل هذا البليغ لو قرض الشـعر »(٢٣) ولا يقولـون العكس لأن صاحبه بحاجـة الى الشعر بينما يمكـن للشاعر أن يكتفي بالشعر عنه ٠
- أن الشواهد لا تكون منه(٢٤) ٠
- لا يغنّى به « ولو فعل هذا به كان منقوصاً »(٢٥) ٠

ومن ملاحظة هذه الأمور التي تحدّث بها أبو حيان عن النثر مقدماً له في كثير منها نجـد أن بعضها ناتج عن أشياء **داخلة في طبيعته** كالوحـدة والبعد عن التكلف ، وأن بعضها الآخر ناتج عـن **أشياء خارجة** عنه تتمثل في موقف الله منـه وموقف الرسول والناس والوزراء والحكام ، ولا شـك أن العوامل الخارجية قد تسهم في القاء بعض الأضواء على أهمية فن من الفنون الا أنها لا يمكن أن تتحول الى قيم فنية ، وصحيح أن قيمة الأدب لا يمكن أن تحدد بالمقاييس الأدبية وحدها، الا أن هذه المقاييس لا بد منها في تحديد ما هو أدب مما هو ليس بذلك كما يقول إليوت ٠ وعلى ذلك فان تقديم أبي حيان للنثر على لسان معاصريه مقبول في الجانب الذي ينطلق من طبيعة النثر ، ومرفوض في الجانب الذي

★ ★ ★

ينطلق من خارج طبيعته ٠

وبعد أن ينتهي من عرض المسائل المتعلقة بالنثر يغادره الى الحديث عن النظم فيتحدث عن طبيعته ومزاياه وعيوبه كما فعل في السابق ٠

* طبيعـــة النظـــم :

- هو كلام صادر عن عفو البديهة ، وصورة الحس فيه أقوى ، وصورة العقل فيه أقل(٢٦) ٠
- هو صناعي ، داخل في حصار العروض ، وأسار الوزن وقيد التأليف(٢٧) ٠
- فن مستقل له أصوله وقواعده وأصوله وأسراره التي لا يصل اليها الا المجيـدون فهو « صناعـة برأسها تكلم الناس في قوافيها ، وتوسعوا في تصاريفها وأعاريضها ، وتصرفوا في بحورها(٢٨)٠
- يعتمد على الوزن ، وحتى لو لم يغنّ به لكان ذلك محسوساً فيه(٢٩) ٠

٢٢ـ الامتاع والمؤانسة ١٣٢/٢ ٠
٢٣ـ نفسه ١٣٧/٢ ٠
٢٤و٢٥ـ نفسه ١٣٦/٢ ٠
٢٦ـ الامتاع والمؤانسة ١٣٢/٢ ٠
٢٧ـ نفسه ١٣٣/٢ ٠
٢٨و٢٩و٣٠ ـ نفسه ١٣٦/٢ ٠

** مـزايـــاه :

ـ ان الشواهد « لا توجد الا فيه ، والحجج لا تؤخذ الا منه ، أعني أن العلماء يقولون قال الشاعر ، فعلى هذا الشاعر صاحب الحجة ، والشعر هو الحجة »(٣٠) ٠

ـ أنه يكتفى به عن النثر وليس النثر كذلك ٠

ـ أنه يزين الكلام المنثور فالناس يقولـون « ما أحسن هذه الرسالة لو كان فيهـا بيت من الشـعر لأن صورة المنظوم محفوظة »(٣١) فالوزن يساعد على الحفظ ٠

ـ قربه من النفوس ، ومكافآت الحكام والامراء عليه « للشعراء حلبة ، وليس للبلغاء حلبة ، واذا تتبعت جوائز الشـعراء التي وصلت اليهـم من الخلفـــاء ٠٠٠ وجدتهـا خارجـة عن الحصـر بعيدة عن الاحصاء ، واذا تتبعت هذه الحال لأصحاب النثر لم تجد شيئاً من ذلك »(٣٢) ٠

ـ أنه لا يُغنّى الا به ولا يحدىالا بجيده،ولا يؤهل للحن الطنطنة ولا يحلى بالايقاع الصحيح غيره ، لأن الطنطنات والنقرات والحركات والسكناتلا تتناسب الا بعداشتمال الوزن والنظم عليها»(٣٧) والغناء « معروف **الشرف** عجيب الأثر ، عزيز القدر ، ظاهر النفع ، في معاينة الروح ومنفاة العقل ، وتنبيه النفس واجتلاب الطرب ، وتفريج الكرب ،واثارة الهزة، واعادة العزة، واذكار العهد ، واظهار النجدة واكتساب السلوة وما لا يحصى عدده »(٣٤)

*** عيـوبـــه :

ـ لا يطرق الا لداعية عارضة وسبب باعث وأمر معـين (٣٥) ، وليس هو بذلة لكـل الناس من الخاصة والعامة ٠

ـ ان اعتماد الشعر على قواعد وأصول وقيود جعل درجته تهبط لدخول **التكلف** اليه ، فالشاعر حين يحاول « توقي الكسر والزحاف » يدخل **الآفـة** من كل ناحية على نظمه فالصناعة أو الفن لا بد لها من **براعة** أو مهارة تخفي أمور **الصنعـة والتكلف**حتى يظهر العمل الفني وكأنه صادرعن الطبع وعفو البـديهـة (٣٦) ٠

ـ هو ليس **بالكريم الجوهر** لأنه ليس **جوهراً** فهو **عرض** قابل للتغير ، كما أنه ليس بأصل بل **فرع** والفرع أنقص من الأصل(٣٧) ٠

٣١و٣٢و٣٣و٣٤ ـ **الامتاع والمؤانسة** ١٣٦/٢ ٠
٣٥ـ **الامتاع والمؤانسة** ١٣٣/٢ ٠
٣٦ـ نفسـه ١٣٤/٢ ٠
٣٧ـ نفسـه ١٣٢/٢ ٠

ـ النظم من قبل الحس ولدخول النظم في طي الحس دخلت عليه **الآفة** وغلبت عليه **الضرورة**، واحتيج الى **الاغضاء** عما لا يجوز مثله في النثر(٣٨) ٠

هذه هي الأمور التي تناولها أبو حيان في حديثه عن النظم ، والملاحظ لها أيضاً يجد أن بعضاً منها يتعلق بما هو خارج عن العملية الشعرية مما هو خاص بالجمهور وسيكولوجيته وعلاقة ذلك بقيمة العمل الفني ولا حاجة بالمرء الى اعادة الرأيفي هذه الأمور الخارجة عن العمل الفني فقد سبق ذكرها فيما مضى من الحديث عن النثر ٠

وكما قدّم أبو حيان لحديثه عن الشعر والنثر بمقولة أستاذه أبي سليمان عن الكلام نجده يختمه بالحديث عن الكلام أيضاً وكما وجدنا أبا سليمان في البداية يسوّي بين الشعر والنثر ويوفق بينهما ويدعو الى الجمع بين فضائلهما وتوقي عيوبهما نجده هنا من جديد يفعل الفعل نفسه فيقول « ان المعاني تكون موجودة في النفس فيحوم عليها الفكر بالذهن الوثيق والفهم الدقيق ويلقيها للعبارة والعبارة تتركب بين وزن هو النظم للشعر ، وبينوزن هو سياقة الحديث ، وكل هذا راجع الى نسبته صحيحة أو فاسدة (أي الى تناسب بين أجزاء العملالفني وهو التناسب الذي يكفل الوحدة الفنية التي ألح عليها) وصورة حسناء أو قبيحة (أي شكلفني مقبول فلا مضمون دون شكل يقدم فيه فيحسن في نفوس من يتلقونه) ٠٠ وتاليف مقبول أو ممجوج (أي حسن اخراج يؤلف بين الأجزاء ليوحد ما بينهما) وذوق حلو أو مر (يصقل العملالفني ويمحو أثر الصنعة فيه) وطريق سهل أو وعر (في تناول الفكرة والتعبير عنها) واقتضاب مفضل أو مردود (المهم فيه هو أداء المعنى) واحتجاج قاطع أو مقطوع (يصيب به المتكلم مفاصل الكلام ويؤدي غرضه) وبرهان مسفر أو مظلم (يؤيد به كلامه ويقنع به محدثه) ومتناول بعيدأو قريب ومسموع أو غريب (أي طريق مألوفة التعبير سهلة ليست بالغريبة ولا بالبعيدة) ، فاذاكان ما ذكر هو المهم في الكلام الذي هو مجموع العبارات فان للنثر فضيلته التي لا تنكره وللنظمشرفه الذي لا يحمد ولا يستر ، لأن مناقب النثر في مقابلة مناقب النظم ، ومثالب النظمفي مقابلة مثالبالنثر، والذي لابد منهفيهما، العلامةوالدقة ،وتجنب العويص وما لا يحتاج فيه الى التأويل والتلخيص (٣٩) ٠

ان مزايا أي منه وعيوبه ينبعان من طبيعته ،كما أن طبيعة الشيء هي التي تحدد وظيفته وعلى ذلك فان لكل فن بلاغته ، التي يمكن أن يشار اليهاوتحدد وتشرط بأمور معينة فبلاغة الشعر (أن يكون نحوه مقبولاً ، والمعنى من كل ناحية مكشوفاً، واللفظ من الغريب بريئاً والكناية لطيفة ، والتصريح احتجاجاً ، والمؤاخاة موجودة ، والمواءمةظاهرة »(٤٠) وبلاغة النثر « أن يكون اللفظ

٣٨ـ نفسه ١٣٤/٢ ٠

٣٩ـ الامتاع والمؤانسة ١٣٩/٢ ٠

٤٠و٤١ ـ نفسه ١٤١/٢ ٠

متناولا ، والمعنى مشهوراً ، والتهذيب مستعملا ، والتأليف سهلا ، والمراد سليماً والرونق عالياً ، والحواشي رقيقة ، والصفائح مصقولة والأمثلة خفيفةالمأخذ والبوادي متصلة والاعجاز مفصلة»(٤١)·

هذا كل ما يمكن للمرء أن يستنتجه من حديث أبي حيان عن الشعر والنثر ، وأهميتهما وبلاغتهما ، ثم عيوبهما ، ولا شك أن ثمة مؤشرات عديدة يقترب فيها أبو حيان من مفهومي الأدب والفن المعاصرين ، ومن خصائصهما ، كما أن ثمة مؤشرات عديدة أخرى يبتعد فيها عن هذه الخصائص ، وحتى يمكن للمرء أن يرصد هذهالمؤشرات سلباً أو ايجاباً ، ولا بد له في البداية من عرض خصائص الفن ، وخصائص الأدب ، حتىيكون رصده أكثر موضوعية ، وأكبر فائدة ·

في الأدب والفـــن

الشعر والنثر كل منهما **فن صغير من غصن** هو الأدب ، في شجرة كبرى هي الفن · وهذا الفن الصغير لا بد أن تسري فيه في لحائه عصارات غصنه ، وعصارات جذعه الأكبر اذ أن الشجرة كلها تمتح من معين واحد ، تمتص جذورها مما فيه من انسانية وحرية وجمال ·

فما هي الشجرة التي هي الفن ؟

وما هو غصنها الذي سميناه الأدب ؟

وما هو معينها الذي تمتح منه لتغنى وتورق وتثمر ؟

أليس من حقنا أن نعرف شيئاً عن الشجرة الكبرى أو الغصن بعد أن عرفنا شيئاً من أبي حيان عن فننين صغيرين من أفنائها ·

الفـــن :

« عملية ابداعية تنحو نحو غايات أستطيقية »(٤٢) كما يقول لالاند ، هو انتاج للجمال يتحقق في أعمال يقوم بها موجود واع متصف بالشعور ،وهو **فعالية انسانية ابداعية** غايتها **الجمال** ، تجسيده **في عمل، أو في أثر فني** ، وهو كما يقول عنه صاحب علم الجمال « أثر ابداعي يجسد المعرفة الحدسية »(٤٣) فهو ليس بالمعرفة العادية التي تقومعلى المشاهدة ولا بالمعرفة العامية التي تقوم على الملاحظة والتجربة والمنطق ورصد الظواهر ، انه فوق « المعرفة » ولكنه ليس مفصولاً عنها ، لأنه في عرف سانتيانا « مجرد استجابة للحاجة الى المتعةأو اللذة ، لذة الحواس ، ومتعة الخيال دون أن يكون للحقيقة أي مدخل في هذه العملية اللهم الا بوصفها عاملا مساعداً قد يؤدي الى تحقيق هذه الغاية »(٤٤) وعلى هذا فان هذه المعرفة الفوقيةتقوم على الحدس الجمالي وتجاوز عالم الحس

٤٢ـ مشكلة الفن ١١ ·

٤٣ـ علم الجمال عند ابي حيان ٦٤ ·

٤٤ـ مشكلة الفن ١٢ ·

القائم ، والذي يهتم به العلم ، وعالم التصور الذهني الذي تهتم به الفلسفة « ان الفنان لا ينقل ما تراه عيناه بل ما يحدسه »(٤٥) وهو كثيراً ما يتجاوز الواقع الذي يراه ويعيشه والطبيعة التي تحيط به ، وخاصة في العصر الحديث كما نرى ذلك عند السرياليين « الذين يعتقدون أن وراء القوى العادية التي نعرفها والتي نجيد استعمالها يومياً تكمن فينا قدرات خارقة »(٤٦) وأن مهمة السريالية تكمن في التنبؤ عن دخول الانسانية منطقة الأعاجيب الباهرة فهي تبغي استخدام الشعر والفنون الأخرى والحياة بأكملها لترسم صورة مسبقة عن حلول المملكة الخيالية »(٤٧) ووفق مفهوم السريالية للفن فان الشاعر كما يقول رامبو « ينقلب عرّافاً عن طريق انفلات في جميع حواسه واسع لا حدّ له وخاضع للعقل »(٤٨) . كذلك فان المستقبليين يتجاوزون الواقع ويرون في التمرد(٤٩) عليه عنصراً من عناصر حركتهم التي يراها بعضهم طبيعية جداً « لأن الفن لا يمكن أن يكون تكراراً للماضي أو للواقع »(٥٠) .

فاذا كان الفن هذه الفعالية المبدعة فما هي خصائصه التي يتميز بها عن العلم والفلسفة والمعرفة العادية ؟

١ ـ أول خصائص الفن هي انسانيته فهو « ظاهرة انسانية »(٥١) يقوم بها « موجود واع أو متصف بالشعور » فهو فعالية تحتاج الى وعي وثقافة وارادة ، وهذه جميعها لا توجد الا في الانسان الذي يحاول دائماً أن يكشف عن الجمال الذي هو أيضاً من خصائص الفن ، لأن الجمال في ذاته ليس له وجود « ولا بد لقوة فاعلة حساسة من أن تكشف عنه أو ترمز له بأشكال من الطبيعة أو من عاطفة الفنان ، ان أهمية الجمال في من يصنع اطاراً للتعريف به أي في الفنان وهذا يعني أن من يسعى للكشف عن الجمال يجب أن يتحلى بالحساسية والارداة »(٥٢) ، ولكن ما هي هذه الحساسية وما هي تلك الارادة ، ان الحساسية كما يقول عنها صاحب « علم الجمال » نوع من الارهاف الحدسي يدفع الفنان لادراك الجمال دون سيطرة العقل أو الشعور أو الخيال »(٥٣) ولكن من يتحكم بهذا الارهاف الحدسي ما دام خارجاً عن سيطرة الشعر أو الخيال أو العقل ؟ اننا لا يمكن أن نقبل مثل هذا الانطلاق أو الانفلات خارج حدود الشعور والعقل والخيال الذي لا تقبله حتى السريالية فها هو رامبو يقول : « انفلات في جميع حواسه واسع لا حد له ولكنه خاضع للعقل »(٥٤) وعلى هذا فانه لا بد من

٤٥ـ علم الجمال عند ابي حيان ٧٥ .
٤٦ـ اندريه بروتون ومعطيات السريالية ٦ .
٤٧ـ نفسه ٩١ .
٤٨ـ نفسه ١٠١
٤٩ـ المستقبلية/المعرفة ١٢٦ .
٥٠ـ نفسه ١٢٦ .
٥١ـ علم الجمال عند ابي حيان ٦٦ .
٥٢و٥٣ علم الجمال عند ابي حيان ٧٠ .
٥٤ـ اندريه بروتون ومعطيات السريالية ١٠١ .

الارادة التي تجسد هـذا الحدس وتحوله الى أثـر يمكن أن يقوّم ويحكم **عليه** ، اذ أن الانسان الفنان يتميز **بالعمل** « ويبقى الانفعال أو الحدس المجرد عن الفعل من خصائص **المتذوق** »(٥٥) الذي يحتفظ بتذوقه **لنفسه** دون أن يصل به الى مرحلة **التحليل** أو الحكم أي الى **مرحلة** النقد ، أما الفنان « **فهو** الأداة المعبرة المسؤولة عن الابداع والكشف »(٥٦) ·

٢ ــ أما الخصيصة الثانية التي يتميز بها الفن فهي **الحرية** ، لأنه ما دام نشاطاً انسانياً فانه لا بد أن يكون حصيلة **حرية الانسان الفنان** « هذه الحرية **الشاملة والمسؤولة في** وقت واحـد »(٥٧) ولكن للحرية ضروباً متعددة ووجوهاً كثيرة فما هي الوجوه التي تهم الفنان · ان الحرية التي تهمه هي حرية **التلقي** وحرية **العطاء** ، حرية **الحدس** وحرية التعبير· أما حرية الحدس «فتقضي أن يكون الفنان بعيداً عن جميع المؤثرات السابقة لعملية الحدس ، ومن الـذوق العام ، فالقيـم الجمالية الثابتـة والمستقرة لدى الانسان العادي تبقى متخلفة عـن طبيعة الانسان الفنان وما مظهر الانطلاق الـذي يتجلـى في سـلوك الفنـان وفي طريقـة عيشه الا صورة من صور الحرية والتحلل من قيود المجتمـع ومن القيم العارضة »(٥٨) وذلك أن المهارة التـي تقوم على التقيد بالأصول الموضوعة مسبقاً ، ليست مقياساً **فنياً** ، فالصانع ليس فناناً ، لأن حرية الحدس لديه غير كاملة بل هو مقلد ، والمحاكاة لا يمكن أن تكون فناً ما لم تقترن بالحرية ·

أما حرية التعبير فانها ضرورية **للفنان** حتى يسـتطيع أن ينقـل مـا **يحدسه** ، ما ينفعـل به ، ما يريده بأية صيغة تعبيرية أراد ، « ومما لا شك فيه أن هذه الحرية لم تكـن متحققة على الشـكل الذي وصل اليه الفن الحديث بل كانت دائماً ملتزمة حدود **الواقع والطبيعة** ، وكان همّ الفنـان أن ينقل ما يريد التعبير عنه عن طريق تركيب **الصور المألوفة** في العالم الخارجي »(٥٩) الا أن ذلك لـم يستمر في العصر الحديث ، فقد أطاح فنان هـذا العصر بكل وسـائل التعبير المعروفة والتقليديـة وصارت له طرائقه الخاصة التي أغرقت في ذاتيتها حتى بلغت درجـة الاستغلاق وغدت الكلمة عنـد الشاعر رمزاً ، وغدت مدلولاتها ذاتية جداً ، لقد تمرّد الفنان على وسائل التعبير الواقعية « حتى أصبح يحتقـر موقفه المقلّد للواقع ، ثم غاص في أعماق المستقبل »(٦٠) كما رأينا عند المستقبليين الذين يرون « أن الفن بأسلوب التعبير فيه أو بموضوعه متصل بمستقبل المرحلـة الانسانية ، فـاذا كانت المرحلة الانسانية مرتبطة بهذا القرن ، القرن العشرين قرن الحركة والسرعة التي كانت أقرب لخيال القرون الخوالي من الواقع ، فان الفن ولا شك سيكون مرتبطاً بما وراء السرعة الآلية ، انه بذلك يكون **فنـاً** »(٦١) وهكذا فان فنان اليـوم وصل الى غايـة **الذاتية** في التعبـير فتـرك أعنف

٥٥و٥٦و٥٧ ــ **علـم الجمـال** ٧٠ ·

٥٨و٥٩ ــ **علم الجمال عند ابي حيان** ٧١ ·

٦٠ــ « **المستقبلية** » ١٢٦ ·

٦١ــ « **المستقبلية** » ١٢٦ ·

علامات الاستفهام ترتسم في وجه ناقده بل متذوقه ،ولعل هذا الأمر هو الذي أثار المشكلة النقدية المتعلقة بالقصد والشخصية والتي تعد من أبرز قضايا النقد المعاصر(٦٢) ٠

٣ ـ والخصيصة الثالثة للفن هي **غايته الجمالية** ، فالفن عملية ابداعية تنحو نحو غايات أستطيقية(٦٣) والجمال هو الحقيقة التي تستقطب حدس **الفنان بالحاح** ، لأنه فوق **الخير** وفوق **الحق** اذ ان ما هو خير وحق هو جميل بالضرورة ولكن ليس كل ما هو جميل خير وحق ، فالجمال هو الصفة العامة المطلقة للانسان ، ولذلك فهو حقيقة **انسانية** يسعى وراءها **الفنان المبدع** »(٦٤) فثمة علاقة جوهرية بين مفهوم **الجمال** ومفهوم **الفن** ما دامت الفنون الجميلة انما هي في صميمها ضروب من الانتاج « يفترض فيها أن تجيء **متضمنة لقيمة أستطيقية** »(٦٥) ويجدر بالمرء أن يشير هنا الى أن ثمة اختلافاً بين القيم الأخلاقية والمنطقية وبين القيم الجمالية ، اذ أن الأخيرة هي نتاج فيض المقدرة الابداعية عند الفنان ، بينما تبقى القيم الأولى عبارة عن مجموعة من الموازين الاجتماعية والعقلية التي وضعت لتنظيم السلوك العادي للانسان وحياته على هذه الأرض ٠

ثم ان هذه القيم الجمالية على ما فيها من معاني **التفاؤل** الذي « لا حد له في التحول الانساني »(٦٦) فانها احراج « مستمر يشد الفنان دائماً بين المأساة والمهزلة وبين العفوية والمنطق ، وبين الذاتي والموضوعي ، وبين الحقيقة الغامضة والواقع المتغير المألوف »(٦٧) ولعل جمالية الفن تكمن في هذه المفارقات التي تشد الفنان وتشد بالتالي متذوقه وناقده وتحدث في نفسيهما الانعطافات النفسية الحادة مثلما أحدثتها في نفسه ،ان سر جمال الفن هو في تتابع هذه المتناقضات والمفارقات وفي بزوغ شعاع الأمل من بين رماد اليأس « وما كانت الحياة الانسانية لتوحي للبعض بهذه الخيبة في الأمل لو لم نشعر باستمرار أننا قادرون بالقوة أن نقوم بأفعال **تفوق قوانا** » (٦٨)٠

وكذلك فان ما فيها من النسبية تدفع الانسان الفنان دائماً الى البحث عن المطلق فيها ، فهي حصاد الكشف عن **حقيقة الوجود** ، اذ ليس الوجود كياناً مشخصاً ، بل هو مواقف يمتحن فيها الكائن خطورة أهميته في الحياة ، ولأن هذا الوجود مرتبط بمعرفة منفردة ، مرتبط بادراك خاص مستقل عن كيان خارجي ، فان القيم الجمالية تجد تبريرها عند ارتباطها بفيض الابداع الفني »(٦٩) يقول

٦٢ـ راجع **المعرفة** العدد ١٣٦ ففيه مقالان حول « **القصد والشخصية** » ٠
٦٣ـ **مشكلة الفن** ١١ ٠
٦٤ـ **علم الجمال عند ابي حيان** ٧٢ ٠
٦٥ـ **مشكلة الفن** ١٢ ٠
٦٦ـ **أندريه بروتون ومعطيات السريالية** ٦ ٠
٦٧ـ **علم الجمال** ٧٢ ٠
٦٨ـ **اندريه بروتون ومعطيات السريالية** ٦ ٠
٦٩ـ **علم الجمال** ٧٢ ٠

غوته : أن للفن عمقه وقوته ، فهو يثبت أعلى اللحظات في الظواهر الطبيعية ، وذلك بادراكه طابع الشرعية وكمال التناسب ورفعة المغزى وسموالعاطفة ، ان جمالية الفن دائماً تكمن في سموه دائماً الى عوالم يستشرف فيها الفنان حقيقة الوجود الانساني ٠

★ ★ ★

الأدب :

هناك من يعرف الأدب « بانه كل شيء قيد الطبع »(٧٠) ولكن هذا التعريف للأدب شمولي وواسع يتعدى نطاق الأدب الى دراسة كل ما يتعلق بتاريخ الحضارة الانسانية ليتخذ من تعريف ابن خلدون مقياساً له في الأدب هو الأخذ من كل علم بطرف وعلى ذلك فان كل العلوم هي أدب ، وهذا يحشر الأدب في معايير أجنبية عنه « وينتج عن ذلك أن الأدب يستقي قيمته بمقدار ما يقدم من نتائج لحقول الدراسة المجاورة له »(٧١) وهذا غير مقبول لأنه صحيح أن قيمة الأدب لا تحدد بالمقاييس الأدبية وحدها ، الا أن هذه المقاييس لا بد منها لتحديد ما هو أدب مما هو خارج عنه ، ان هذا التعريف انكار للعقل النوعي والمناهج النوعية للدراسة الأدبية ٠

وثمة تعريف آخر للأدب يقصره « على الكتب العظيمة التي تشتهر لشكلها الأدبي أو تعبيرها»(٧٢) مهما كان موضوع هذه الكتب وسواء كانت أدبية أم غير أدبية ، والمعيار الذي يحدد طبيعة هذه الكتب وقيمتها هو **الجدارة الجمالية** وحدها ، أو الجدارة الجمالية مضافاً اليها ميزة فكرية أخرى ، « ففي الشعر الغنائي والدراما والرواية تختار أعظم الأعمال على أسس جمالية /قيم فنية/ أما الكتب الأخرى فتنتقي لشهرتها (تأثيرها على جمهورها وقدرتها على التأثير فيها الكتّاب الآخرين وتحويل الأعراف الأدبية) أو لسموها الفكري معاً بالاضافة الى قيمة جمالية أخرى »(٧٣) ولكن مؤرخ الأدب اذا اعتمد هذا التعريف الذي يجسد الأدب بهذه الآثار العظيمة يغدو مجرد جامع ولا يغدو في النهاية غير مؤرخ مقتدر ٠

ان الأفضل لنا أن نقصر مصطلح الأدب على فن **الأدب** أي على اعتباره جزءاً من الفن ، أو واحد من **الفنون الجميلة** (٧٤) فهو تعبير عن الحياة **في كلمات من الحقيقة والجمال** »(٧٥) ومن المعروف أن اللغة مادة الأدب ، وأن هذه اللغة « هي ذاتها من ابداع **الانسان** فهي مشحونة بالتراث الثقافي لكل مجموعة **لغوية** »(٧٦) واذا كنا نقصر مصالح الأدب على « الأدب الابتداعي » فاننا نقر بأنه **تخيل** أو

٧٠ـ نظرية الأدب ١٩ ٠
٧١و٧٢ ـ نفسه ٢٠ ٠
٧٣ـ نظرية الأدب ٢٠ ٠
٧٤ـ Literary Criticism P. 3 .
٧٥ـ Literary Criticism P. 4 .
٧٦ـ نظرية الأدب ٢٢ ٠

اختراع أو **تخيل** فهذه صفة مميزة له ، ولا بد من الاشارة هنا الى أن هـذا المعيار الذي نذكـر هو معيـار وصفي وليس معيـاراً **تقييميـاً** والـى أن« التصنيف بحسب الاعتبار الفني يجب أن يتميـز عـن **التقييـم** »(٧٧) ٠

ان خصائص أي شيء وصفاته ووظيفته تنتج من طبيعته ، وبعد أن رأينا أن الأدب هو واحد من الفنون الجميلة وانه **ابداع وتخييل**(٧٨) وأن أداته **اللغة**(٧٩) التي هي من صنع الانسان نفسه وأن هذه اللغة **مشحونة بالتراث الثقافي** لكل مجموعة لغويـة فانه يمكن لنا أن نشير الى الخصائص التالية التي تميز الأدب عـن سـواه :

١ ــ ان الأدب كما سبق تعريفه تعبير عـن الحياة في كلمات من الحقيقة والجمال ، وعلى ذلك فان أول شيء هام في الأدب هو صفتـه **الفنية**(٨٠)الأساسية ، فهو انعكـاس لبعض الجمال والحقيقـة الموجودين في هذا العالم ، اذ أن هذا الانعكاس يبقى غير ملاحظ ما لم يسترع الى انتباهنا من قبل روح انسان حساس ، يتمتع بالحدس المرهف ، فالكاتب الفنان أشبه ما يكون بتلـك المنحنيات اللطيفـة للصدفة التي تعكس الأصوات والأنغام التي هـيأخفت من أن تلاحظ ٠

ان كل عمل فني هو **كشف** ، وهذا فان الأدب هو الفن **المعبـر عن الحيـاة** في كلمات تسـتهوي حواسنا الجمالية ٠ لدينا كتّاب كثيرون ، ولكن فنانون قلائل ٠ وان شئنا أن نجمل القول في هـذه الصفة قلنا أن « **الأدب هو السجل الفني للحياة** » ٠

٢ ــ والخصيصة الثانية للأدب هي ضمن قدرته غير المحـدودة على **الايحـاء**(٨١) ، فالكـاتب الأديب رغم أنه يستعمل اللغة العادية الا أن استعماله لها يكون بشكل موح ومؤثر حتى أن اسـتعمال **اللغة** غدا عند الرمزيين في أوائل هذا القرن **ايحاء فقط** فها هو مالا رميه يقول : « ان التسمية تدمير، والايحاء خلق » فاستجابة الأدب لعواطفنا ومخيلاتناأكثر من استجابته لأذهاننا هو الصفة التي تميزه عن غيره اذ ليس ما يقال في منزلة ما يوقظ فينا ، وهذا ما يؤلف روعته وامتاعه ، وعندما يجعـل ميلتون الشيطان يهتف في الفردوس المفقود : « أنا الجحيم » فانه لا يقرر أية حقيقة ، ولكنه يفتـح بهذه الكلمات الهائلة عالماً هائلا من التخمين والخيال٠ وعندماتساءل غوته علىلسانفاوست عندما يرى هيلين « أهذا هو الوجه الذي أطلق ألف سفينة ؟ »فانه كذلك لا يقرر أية حقيقة ، ولا يتوقع جواباً ، انه يفتح باباً يدخل خيالنا منه الى عالم جديد منالموسيقى والحب والجمال والبطولة ، عالم الأدب اليونانـي الرائـع المهيب ، وهـذا السر كامـن فيالكلمات ، فيقدرتها الى الايحاء ٠

٧٧ــ **نظرية الأدب** ٢٧ ٠

٧٨ــ **مقالة في النقد** ٦٥ وانظر أيضاً ٦٧ ٠

٧٩ــ **مقالة في النقد** ١٢١ ٠

٨٠و٨١ ــ Literary Criticism P. 4 .

ان وظيفة الفن أن يُبهج بالدرجة الأولى لا أن يُعلّم فحسب ، ولا يستحق الأدب اسمه ما لم يبهجنا ويدفع كل قارىء **ليبني** في نفسه قصر المتعةالسماوي الذي حلم به تنيسون في « **قصر الفن** » • ان الأدب فائدة ومتعة كما يقول هوارس •

٣ ـ أما الخصيصة الثالثة للأدب فهي **خلوده** ،(٨٢) فرغم انغماس العالم في الماديات ، ورغم انصرافه لها فانه لا يسلم أي شيء **جميل للفناء** ،وهذا الأمر أشد ما يكون وضوحاً في الأغاني • ان الأدب أشبه ما يكون بنهر فائض تتدفق مياهه بغزارة بضحالة ، وهو في مسيرته عبر العصر ينقي نفسه ، ماءه ، فنرى الوحل يتوضع في القاع ليبقى الزبد ممتطياً متن موجة محتفظاً بقدرته على الابهاج في مختلف العصور ، وعندما نتفحص الكتابات التي تؤلف بالاجماع العام وبنا نجد أن التيار الصافي الخالص من الشوائب في هذا النهر الأدبي يتصف على الأقل بصفتين يمكن أن ندعوهما بمعياري الأدب وهما اللتان تحددان **أمر خلوده** •

وأول هذين المعيارين **شموليته**(٨٣) **وانسانيته** وهي كما رأينا خصيصة فنية ، تعني الاستجابة لأوسع الاهتمامات **الانسانية** وأبسط العواطف البشرية ، ومع أننا نتحدث عن آداب الأمم والأجناس كالأغريق والعرب والروس ومع أن كلاً من هذه الآداب يتصف بميزات معينة ناشئة من الخصائص المميزة لكل شعب فانه يبقى صحيحاً أن الأدب **الجيد**لا يعرف قومية ولا حدوداً الا حدود الانسانية •

ان الأدب يهتم بشكل رئيسي بالعواطف والانفعالات الأولية كالحب والكره والفرح والحزن ، والخوف والاطمئنان والتي تؤلف الجزء الأساسيمن طبيعتنا الانسانية ، وبقدر ما يعكس الأدب من هذه الانفعالات فانه بالتأكيد يثير استجابة في الناس من كل جنس • وبقدر ما يستجيب الكتاب أو الأغنية الصغيرة للاهتمامات الانسانية بقدر ما يكونان خالدين •

أما المعيار الثاني فهو معيار **شخصي** ويمكن أن يعبّر عنه بهذه الكلمة غير المحدودة « الأسلوب »(٨٤) Style ، وبالمعنى التقني لهذهالكلمة ، الأسلوب هو **التعبير الوافي عن الأفكار** ، أو هو الأسلوب **الخاص للتعبير عن الفكر**، أو بمعنىأعمق ان أسلوب الرجل هو الرجل نفسه ، فهو التعبير **اللا واعي عن شخصية الكاتب** ، انه الروح **الحقيقية** للانسان التي تعكس الأفكار والمشاعر الانسانية كما الزجاج ، وكما أنه ليس من زجاجدون لون وأن الأشياء التي نراها هي انعكاسات بعمق متفاوت على سطحه ، فان المؤلف كذلك لا يستطيع أن يفسر الحياة الانسانية دون أن يعطيها لا شعورياً الصبغة الخاصة لروحه ، فالأسلوب هو هذا العنصر الشخصي القوي والمميز •

وكل كتاب خالد يملك من هذين المعيارين الذاتي والموضوعي ، الشخصي والشامل الأفكار العميقة والمشاعر الدفينة للعرق معكوسة وملونة بحياة الكاتب وخبرته نصيباً يحدد درجته في سلم الخلود(٨٥) •

٨٢و٨٣و٨٤ ـ Literary Criticism P. 4 .

٨٥ـ انظر Khateeb, Dr. Husam, **Studies in English**, Damascus, 1972, (PP. 15-20)

هذا عرض مجمل لخصائص الأدب والفن المعاصرين ، والمقارنة السريعة بينها وبين ما جاء من حديث الشعر والنثر في ليلة أبي حيان الممتعة المؤنسة تكشف عن بعض وجوه الاتفاق والاختلاف ، ورصد هذه الوجوه مفيد في تبيان مكانة الرجل في سلم التنظير الفني والأدبي ، والأمور التي يمكن تسجيلها بعد هذه المقارنة هي :

١ ـ أشار أبو حيان الى أن الشعر صناعي أي فن يقوم على الثقافة ، وقد سبقت الاشارة الى أن الفن فاعلية تحتاج الى وعي وثقافة أي أن أبا حيان انتبه الى عنصر الثقافة ومدى دورها في صناعة الشعر مثلما انتبه المحدثون الى ذلك .

٢ ـ كذلك ألمح الى أن الشعر يمتاز بقربه من النفوس « فللشعر حلبة »(٨٦) أي أن الأدب لا بد أن يتميز بهذه الاستجابة الى مشاعر الناس وعواطفهم الأساسية ، وهذه لفتة بارعة منه ، أشار اليها المحدثون كما رأينا في الحديث عن خصائص الأدب .

٣ ـ في معرض حديث أبي حيان عن الكلام وجودته يقول : وكل هذا راجع الى نسبة صحيحة أو فاسدة(٨٧) « أي انه يشير الى ضرورة تناسب أجزاء العمل الفني ، ومن المعروف أن هذا التناسب عرف تقليدي أشار اليه نقاد اليونان وكان من الأصول الأساسية للنقاد الكلاسيكيين في عصور النهضة .

٤ ـ الكلام عند أبي حيان اما صادر عن كد الروية ، أو عن عفو البديهة ، وهو في جانب منه حسي ، وفي جانب آخر عقلي ، والعمل الفني كذلك يعتمد في جزء منه على الحدس ، ويعتمد في جزء آخر على الارادة والعقل اللذان يحولان هذا الحدس ويجسدانه في أثر فني يمكن أن يتذوق وينقد ويحكم عليه .

٥ ـ يتحدث كذلك أبو حيان عن الصورة الجميلة التي ينبغي أن يخرج بها الكلام أي أنه يشير الى خصيصة هامة من خصائص الفن وهي الجمالية ، فما لم يخرج الكلام بهذه الصورة الحسنة أو الحسناء لا يمكن أن يعتبر شعراً أو نثراً وبالتالي لا يمكن أن يكون أدباً .

٦ ـ كما أشار أيضاً الى الوحدة الفنية ، ومن المعروف أن الوحدة الفنية عنصر هام من عناصر العمل الفني(٨٨) .

٧ ـ يقول أبو حيان « ان المعاني تكون موجودة في النفس فيحوم عليها الفكر بالذهن الوثيق والفهم الدقيق ... ويلقيها للعبارة »(٨٩) أي أنه يحولها بارادته الى عمل الى أثر فني مجسد ، أي ان الفنان في نظره يتميز بهذا العمل ، تجسيد الانفعال والفكر في أثر فني وهو بذلك لا يختلف عن المنظرين المحدثين .

٨٦ـ الامتاع والمؤانسة ١٣٧/٢ .
٨٧ـ نفسه ١٣٩/٢ .
٨٨ـ علم الجمال عند ابي حيان ص ٦٠ .
٨٩ـ الامتاع والمؤانسة ١٣٩/٢ .

وبعد ، هذه بعض الأمور التي يمكـن أن يسجلها المرء من خلال قراءته لما كتبه أبو حيان عن الشعر والنثر ومقارنة ذلك بخصائص الأدب والفن ، ولا شك أنه رغم ما وجدنا في كلام أبي حيان من مؤشرات إيجابية في المقارنة فاننا لا يمكن أن نطلب منه أن يكون ناقـداً معاصراً فما بيننا حجـاب من عشرة قرون ، وهذه القرون العشرة ليست بالقليلة في عمر الحضارة الانسانيـة ، كما أن ما أصبـح متاحاً للباحثين والمنظريـن المحدثين لم يكن متاحـاً لصاحبنا وحسب المرء في النهاية أن يشير الى أن أبا حيان كان موضوعياً في حديثه عن الشعر والنثر يعرض مختلف وجهات النظر حولهما ، وأمينـاً في نقل وجهات النظر هـذه حين أسندها جميعـاً الا القليل ، وأنه تنبه الى صفات أساسية فنية في الشعر والنثر ما زلنا نقر بها الى اليوم ، وأنه انطلـق في تنظيره لمفهوماته عن الشعر والنثـر من الأدب العربي نفسه أي من الأعمال الفنية نفسها ثم انتقل من ذلـك الى عملية التنظـير والبنـاء للمقاييس الجمالية ، وأنه راعى في النهايـة أذواق مختلف الفئات الخاص منها والعام ، وكان بذلك الناقـد الفني الحصيف ذا الأفق الواسع في نظرته للأمور ،وذا الصدر الرحب الموضوعي الذي يقلب الأمـور على مختلف وجوهها فيأتي على ما لها وما عليها ،وحسبه ذلك ، فقد كان في القرن الرابع الهجـري خلف جدار من عشرة قرون ينهض ما بينه وبـين القـرن العشـريـن .

□ ● □

ـ المـراجـــــع ـ

١ ـ د. ابراهيم ، زكريا — مشكلة الفن — القاهرة ؟
أبو حيان التوحيدي — القاهرة ؟
٢ ـ د. بهنسي ، عفيف — علم الجمال عند أبي حيان ومسائل في الفن — بغداد ١٩٧٢
« المستقبلية » — المعرفة ١٣٩ ايلول ١٩٧٣ دمشق
٣ ـ التوحيدي ، أبو حيان — الامتاع والمؤانسة — بيروت ؟
٤ ـ كاروج ، ميشيل — اندريه بروتون ومعطيات السريالية — دمشق ١٩٧٣
٥ ـ وارين ، أوستن ورينيه ويليك — نظرية الأدب — دمشق ١٩٧٢
٦ ـ (ترجمة محي الدين صبحي ، ومراجعة د. حسام الخطيب)
٧ ـ . Khateeb, H., **Studies in English**, Damascus, 1972
. Khouri, M., **Literary Criticism**, Damascus, 1972
٨ ـ هو ، غراهام — مقالة في النقد — دمشق ١٩٧٣

المَوْقِفُ الأَدَبِيّ

العـدد
٩١
تشرين الثاني ١٩٧٨